

على بساط الثلاثاء

٢٥

يكتبها : حبيب عيسى

بطاقة تعارف !....!

(٥)

(تيمة... "ه"... بطاقة تعارف) :

(٣٣)

إن مشروع النهضة ، في الوطن العربي ، أشمل ، وأكثر اتساعاً ، من أن يضعه فرد ، أياً كان ، وأكبر من أن تحيط به ، جماعة واحدة ، مهما امتلكت من إمكانيات ، إنه مشروع بحجم الأمة ، لا يمكن أن يستثنى ، أحد ، في هذه الأمة ، أو ، أن يستثنى ، أحد ، نفسه ، من المساهمة في صياغته... وبالتالي فإن المطلوب ، الآن ، والملح ، أن تفرزه الأمة ، عبر مكوناتها المتعددة ، وتنتشره بذوراً في أرجاء الوطن ، وأن تدفع بحملة مشاعله ، كصف واحد ، لكل موقعه ، ومكانته ، بدون "مايسترو" ، بدون قائد ، بدون قيادة ، بدون أي تشكيل هرمي ، من أي نوع ، المرحلة ، مرحلة حراثة أفقية ، شاملة ، للأرض العربية ، كل الأرض العربية ، وفي العمق أيضاً ، سواء تلك التي يتحكم بها المستبدين ، أو تلك التي يحتلها الغزاة ، أو تلك المتروكة للمستوطنين من شتات الأرض ، أو تلك المستباحة من دول الجوار .

هنا ، يثور سؤال ، عن الآلية الضرورية ، حتى لا تضيع تلك الجهود ، وتبقى مبعثرة ، دون ناظم .

دعونا نتفق ، أن العمل قسمة ، فليبدأ كل من موقعه ، وكما أفرز مشروع النهضة رواده في القرن المنصرم ، لا بد أن يفرز مشروع النهضة ، الآن ، رواده الجدد في المجالات كافة ، ثم تبدأ مرحلة أخرى ، هي مرحلة التنسيق ، والتصنيف ، والتحالف ، ثم لنترك الباب مفتوحاً ، للآليات ، التي تستدعيها عملية التطور الإيجابي ، للمجتمع ، عبر تفعيل قانون الجدل الاجتماعي ، في الوطن العربي...! ، نحن كقوميين عرب سنطلق مشروع "الطليعة العربية" ، إضافة للمشاريع القومية القائمة ، وننتظر من الماركسيين العرب أن يطلقوا مشاريعهم المناسبة ، وكذلك ، من الليبراليين ، والدينيين المتنورين ، ومن سائر

مكونات المجتمع العربي...،الجميع مطالب بالمراجعة ،وبالإبداع ،في الوقت ذاته ،ونحن ،سنبدأ بما يخصنا ،كقوميين عرب.....

- إنها "الطليعة العربية" إذن ...! ،نعم ، لكن بأي معنى...؟ ، وكيف ...؟ ألا يكفي ما عانيناه ، مما سمي في الواقع العربي ، طلائع ، وطلیعة ، وتنظيم طليعي ، وإلى آخرهم ..؟ من منظمات إشكالية ، وشكلانية ، حملت ذات الأسماء.....؟

بداية أقول ، إن هذا الاعتراض ، في حال وروده ، له مبرراته غير المنكورة ، لكن المسألة تعود ، بنا ، إلى بداية هذا الحديث ، ونقصد إعادة تحديد المعاني ، والمقاصد ، من المفاهيم التي تشوهت بفعل تجارب ، لم تمهلها المعارك المستمرة ، كي تنضج تجاربها ، أو بفعل تجارب مشوهة أصلاً ... فلنبدأ،إذن، بتحديد مفهوم "الطليعة العربية"، كما ندعو إليها ،الآن ، أو على الأصح ،دعونا بداية ، نطرح مشروعاً تعريفيّاً بـ"الطليعة العربية" ،لاكما رأيناها في القرن المنصرم ،وإنما كما نريدها بعد التجارب المرة ،للحاضر ،وللمستقبل...،إنه ،باختصار ، مجرد ، مسودة ن مشروع ، قابل: للحذف ، والإضافة ، والتعديل ، والتغيير ، ومطروح للنقاش العام ، من قبل حملة مشاعل استئناف النهوض القومي العربي .أولئك اللذين خرجوا من خرائب المعارك السابقة ،بأقل قدر من التشوهات ،إضافة إلى الرواد ، من الجيل العربي الجديد ،المعول عليهم ،أصلاً ، في استئناف مسيرة النهوض ،والتنوير.....!

(٣٤)

وإذا كانت مسألة النهضة ، في الوطن العربي ، تستدعي استنفار طاقات المجتمع الهائلة ، بدءاً من الشباب ، والكشافة ، والطلبة ، والرحالة ، والدعاة ، مروراً بمقدرات الرجال ، والنساء ، عمالاً ، وفلاحين ، ميكانيكيين، وفنيين، وتقنيين ، وعلماء ، ومبدعين في شؤون البيئة ، والمياه ، والتربة ، ومؤرخين يعيدون اللحمة ،الموضوعية ، للأحداث التاريخية ، وجغرافيين ، وعلماء فلك ،

وفلاسفة ، وعلماء نفس ، وعلماء اجتماع ، وأطباء ، ومهندسين ، ورجال قانون ، وفقهاء ، وأدباء ، وشعراء ، وروائيين ، وفنانين ، وموسيقيين ، وصحفيين ، ورياضيين في شتى المجالات ، وإلى آخر المبدعين في شتى صنوف المعرفة ، التي وصلت إليها البشرية ، والتي تبرعم أصنافاً جديدة من المعرفة ، تتعلق بالاقتصاد ، والتنمية ، وعلوم الاجتماع ، والسياسة ، وفرضيات نشوء الكون ، وفرضيات مساره، ومآله ...، وما اكتشف من تاريخ الإنسان ، وما لا يزال مجهولاً .. فإن ، هذا كله ، يعني ، أن المشروع السياسي ، للنهضة ، ليس مفصلاً ، عن شيء ، من ذلك كله ، وليس مجرد خطاب محصور ، في جانب واحد ، من جوانب علوم الإنسان ، ومعارفه ، وما يحيط به ، وإنما ، هو ، مشروع شامل ، يتضمن ذلك كله ، والعمل السياسي المطلوب ، للخروج من المأزق ، هو الذي ينظم ذلك ، ويضعه ضمن مشروع متكامل للنهضة العربية ...

(٣٥)

وإذا كان العمل قسمة ، كما اتفقنا، فإنني سأبدأ بنفسي ، وسأسخر ما أبقته ، السنون العجاف ، من طاقة ، للمساهمة ، بوضع مسودة مشروع ، لمشروع النهضة ، في الوطن العربي ، وسأدخل ورشة بناء هذا المشروع ، وأنا أعرف ، مقدما ، أن ما كتبت ، وما سأكتبه ، لا يساوي الحبر الذي يكتب فيه ، مالم يدخل جميع الذين ، تم تعدادهم ، في الفقرة السابقة ، ورشهم الخاصة ، كل ، حسب اختصاصه النوعي ، وحسب وعيه العام ، للمساهمة في هذا المشروع ، حسب مقدرته ، وبالقدر الذي يطيق ، من موقعه ، حسب ما يقرره ، هو ، من مساهمة ، وذلك لبناء مشروع نهضوي ، متكامل .

هذا يعني ، أنه ، واعتباراً ، من هذه النقطة ، يتم الفصل ، التام ، بين الذاتي ، والموضوعي ، فيغدو ، المشروع المقترح ، حقاً مكتسباً ، لكل من يساهم فيه ، إضافة ، أو تعديلاً ، أو تغييراً ، أو تصحيحاً ، أو حتى ، باقتراح مشروع بديل ، وإذا كنت مضطراً ، لوضع اسمي على هذه المسودة ، من المشروع ، لضرورات النشر ، فإن لكل

عربي ، في الوطن، أو في المغتربات، أن يضع اسمه عليه ، ولمن يقترح إضافة ، أو تعديلاً ، أن يضيف اسمه ، أيضاً ، وبقدر ما تتسع دائرة المتحاورين ، حول هذا المشروع ، وبقدر ما تتسع دائرة المشاركين ، والفاعلين ، والموقعين عليه ، بقدر ما تقترب من إنجاز مشروع الانطلاق ، باتجاه النهضة ، وأؤكد ، على مشروع الانطلاق إلى النهضة ، وليس مشروع النهضة ، فنحن، كجيل، سنكون محظوظين جداً ، إذا سمعنا صافرة الإنطلاق ، وحسب ، وللأجيال القادمة أن تنعم بالنهضة . وأنا ، من جهتي ، أتنازل ، منذ هذه اللحظة ، عن جميع الحقوق المعنوية ، والمادية ، المتعلقة بهذا المشروع ، وأقول ، أنها حقوق محفوظة ، أتنازل عنها ، لكل من يساهم فيها، ولكل من يتبناها ، أن يعتبرها ملكاً خالصاً ، له، إذن ، فليبدأ ، كل ، من موقعه ، وليحضر ، كل ، أدواته ، ثم ، لن نعدم الوسيلة ، لإيجاد آلية ، ما، للتنسيق ، والتصنيف ، والتدقيق ، المهم ، أن يشعر جميع أبناء هذه الأمة ، أنهم مدعوون إلى ساحة عامة ، ليست ملكاً لأحد ، ولا تابعة لفرد ، ولا حكراً لمجموعة ، إنها ساحة عامة ، هي مرفق عام ، للأمة كلها ، كيف نصونها ؟ ، كيف نحميها من أي اعتداء ؟ ، كيف نحصنها ؟ ، كيف يكون الواقفون على أرضها ، هم ، مصدر القرار ؟ ، وهم مآله ، كيف نعكس الاتجاه السائد ، حالياً ، في الوطن العربي ؟ ، فيتوقف هذا التدفق المقلق ، من دائرة المواطنة ، إلى دائرة الرعايا ، ثم ، لاستئناف التدفق ، من دائرة الرعايا ، إلى دائرة المواطنة الرحبة ؟ ، كيف ... ؟ ، ومتى ... ؟ ، ومن أين ... ؟ ، عشرات الأسئلة ، التي تنتظر جهود ، ونضال ، ومعرفة ، ووعي ، المئات ، والآلاف ، والملايين ، من أبناء الأمة ، للإجابة عليها ، بروية، وعقلانية ، لكن بتصميم، وإصرار في الوقت ذاته .

(٣٦)

قد يرى البعض ، أن هذا المشروع ، طموح أكثر ، مما تحتمله

الظروف ، أو كما يقول المثل الشعبي الدارج (من كبر الحجر ما ضرب) فهل المشروع ، الذي تحدثنا عنه ، أكبر مما ينبغي ..؟
إن هذا السؤال يستمد مشروعيته ، من الظروف الصعبة ، التي نمر ، فيها ، ذلك ، أن تعدد المشكلات ، وتنوعها ، وتفرعاتها ، يستدعي ، تعدد المشاريع ، وتنوعها ، من أقصى اليمين ، إلى أقصى اليسار ، وهذا ، يعني حيوية الأمة ، وفشل المحاولات ، الشرسة ، لإعلان وفاتها ، أو تغيير هويتها ، على اعتبار ، أن ما يسمونه منطقة الشرق الأوسط ، قد دخل عصر ما قبل العروبة "كونتونات الطوائف والمذاهب والأثنيات" ، أو عصر ما بعدها ... "العولمة بالمعنى السلبي الذي يحول الأمة إلى ساحة لدول الهيمنة الخارجية" ، المهم ، أنه بالنسبة لقوى الهيمنة الخارجية ، وبالنسبة لقوى التخريب الداخلي ، فإن الأمة العربية ، قد انتهت ...! وهم يعلنون ، ليل ، نهار ، داخلياً ، وخارجياً ، أنهم يعدون ، لخريطة جديدة ، لما يسمونه الشرق الأوسط الكبير ، بعد أن استنفذ ، الشرق الأوسط الصغير ، أغراضه ، وإذا كانوا يعتقدون ، أن من حقهم وضع مشاريع ، وخرائط ، وتجديدها ، لخدمة مصالحهم ، فيما يسمونه ، القطاع الأوسط ، من إمبراطوريتهم ، المعولمة ، على مقاس مصالحهم ، فإن من حقنا ، وضع مشاريع ، وخرائط ، لما نعتقد ، أنه وطننا العربي ، في مواجهة مشاريعهم ، ومخططاتهم ، ومن ، هنا ، اعتقدنا ، ضرورة ، ولادة مشروع جديد ، للنهضة في الوطن العربي ، وبالتالي ، فإن كون هذا المشروع ، أكبر مما تطيقه الأمة ، أو أنه أصغر من أن يحقق الأثر المطلوب ، يتوقف على تناسبه ، مع الواقع الموضوعي ، من جهة ، ومع مقدراته على حمل مشروع التغيير ، إلى المستقبل العربي المنشود ، من جهة أخرى ...

والقضية ، بالفعل ، تستحق التدقيق ، إلى أبعد الحدود ، فمشروع ، أكبر من طاقة الأمة على حمله ، سيكون مجرد ، وهم ، والمشروع الأصغر ، من أن ينتقل بالأمة ، من الوضع الراهن ، إلى طريق النهضة ، هو مجرد ، ملهاة ، لا أثر لها ..

(٣٧)

لكن ، وقبل الدخول في طبيعة المشروع ، وحجمه ، لا بد من وضع عقد اجتماعي ، سياسي ، وطني ، قومي ، بين مكونات الشعب العربي ، لا يحيد عنه أحد ، تحت أي ظرف ، ولا يخترقه أحد ، تحت أي مبرر ، مهما كان .

هذا العقد ، يتضمن أساسا ، نبذ العنف ، بأشكاله ، كلها ، داخل المجتمع العربي ، مهما تباينت المشاريع ، والأفكار ، والمواقف ، فالكلمة تواجهه ، بالكلمة ، والرأي ، بالرأي الآخر ، والمشروع ، بالمشروع المختلف ، وهكذا .. يتداعى الناس جميعاً ، في الوطن ، إلى الكلمة السواء .

إن هذا العقد ، الآن ، وفي هذا الظرف الخطر ، بالذات ، أكثر من هام ، بعد سنوات عجاف ، انقطع الحوار فيها ، تماماً ، بين الجماعات ، والتيارات ، والإيديولوجيات ، والأفكار ، والمبادئ ، على تنوعها ، وحل ، محل الحوار ، مبدأ الرفض ، رفض الآخر ، نفيه بالمطلق ، وهذا ، في حال استمراره ، يعطل التطور ، نهائياً ، في المجتمع ، ويحوّله إلى "كونتونات" مغلقة على نفسها ، في مواجهة الآخر ، كونتونات ، سياسية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية ، أو دينية ... لهذا ، لا بد ، من الاعتراف ، رغم المرارة ، أن الواقع العربي الراهن ، شديد التعقيد ، وأن الاستبداد المديد ، قد دمر بنية المجتمع ، ومزق نسيجه الوطني ، وبالتالي ، فإن النقاش ، والحوار مفتوح ن الآن ، على سائر القضايا ، حتى ، على الهوية ، والانتماء ، للخروج من الفتن ، إلى الصراط المستقيم ، لأن التعامل مع هذا الواقع ، إيجابياً ، يقتضي أعلى درجات الوعي ، والتسامح ، والاستيعاب ، ويقتضي التخلي ، تماماً ، عن كافة أشكال التحايل ، والسرية ، والإخفاء ، والنفاق ، ويقتضي ، الانطلاق إلى الحوار ، بأعلى درجات التصادق ، والشفافية ، والعلنية ، فنتحرر جميعاً من الخوف ، فلتوضع كافة الأوراق على طاولة الحوار ، وليعبّر ، كل ، عن الرؤى ، والأفكار ، التي يؤمن بها ، دون موارد ، أو تورية ، أو خوف ، وليكف الجميع ، عن لغة

التخوين ، لمجرد الاختلاف في الرأي ، إن هذا ، في منتهى الأهمية ، لتسوية الأرض العربية ، وإزالة التشوهات ، وحرارتها ، وتنظيفها ، من الألغام ، وخذاق الفتنة ، والأقبية السرية المشبوهة ، وكافة أشكال التشويه .

(٣٨)

إذا اتفقنا على مضمون هذا العقد ، ووقعناه ، بصدق ، فإن هذا يمكننا ، من التحدث بحرية ، عن مشروع النهضة ، الذي نقترح مسودة له ، من وجهة نظر قومية عربية . وننتظر مساهمات أخرى ، من كافة القوى ، والاتجاهات ، الأخرى ، في المجتمع العربي ... فمشروع "الطليعة العربية" ، الذي نقترحه ، ابتداءً ، ليس بديلاً ، عن أحد ، وليس مشروعاً ، وحيداً ، للتغيير ، إنه مشروع ، حيوي ، يسعى ، بالإضافة إلى تحقيق غايته ، تحفيز الآخرين . على تفعيل مشاريعهم ... ، و"الطليعة العربية" بهذا المعنى ، هي إضافة إيجابية ، إلى جميع القوى الحية ، في الوطن العربي ، وهي طامحة ، إلى التحالف ، بدون شروط ، مع كل من يرفع الصوت ، في الواقع العربي ، لمقاومة الغزاة ، ومشاريعهم ، ولرفع توحش الاستبداد عن كاهل المجتمع ، كشرط أساسي ، لا بديل عنه ، لرفع سوط الخوف عن الناس ، وبالتالي فتح الأبواب للحوار الصريح ، والصادق ، حول مختلف القضايا ، وهو الشرط الأساسي ، أيضاً ، ليستعيد الناس المقدرة على المشاركة ، وبالتالي العودة إلى المواطنة الحقة ، والانعتاق من مرحلة الرعايا .. وتحرير الإرادات لمقاومة الظالمين ، مستبدين ن كانوا ، أو غزاة

(٣٩)

بعد هذا ، واستناداً عليه ، يمكن ، أن نفتح ملف المشروع النهضوي ، الذي نتحدث عنه ، ثم لندقق في حجم هذا المشروع ، وتناسبه مع المقدرة من جهة ، ومع الحاجات من جهة أخرى ، ولنعد إلى المثل الشعبي (من كبر الحجر ما ضرب) .

أولاً : إن المثل الشعبي يتضمن علاقة نسبية ، مضمرة ، بين الحجر من جهة ، وبين مقدرة الساعد الذي يحملها ... ونحن سنسعى لتحقيق تلك المعادلة.....

ثانياً : إننا في الواقع العربي ، لسنا في وارد ضرب الأحجار ، وإنما في موقع الدفاع ، ووقاية الوجه العربي ، من الأحجار التي تلقى عليه ، من مختلف الاتجاهات ، وبحجوم من مختلف المقاسات ...
ثالثاً : وهذا ، هو الأهم ، أننا نبحث عن حجارة صالحة للبناء ، في الداخل ، أما الحجارة المطلوبة ، للضرب ، فمكانها الوحيد الحدود ، والثغور للدفاع عن الوطن ، في مواجهة الغزاة ..

رابعاً : إن التنوع ، والتعدد ، في أحجام الحجارة ، وكيمياء مكوناتها ، وتراكيب فلذاتها، هو الشرط الأساسي لبناء النهضة ، بدءاً من غبار الاسمنت ، إلى ذرات الرمال ، إلى الحصى ، إلى أحجام مختلفة من الحجارة ، إلى عملية السبك الضرورية بين تلك المكونات . بمعنى أن تلك المكونات ، جميعها ، أساسية ، لا يغني بعضها عن البعض الآخر ، فليحمل ، كل ، حسب طاقته.....

كل هذا لا بد من تجهيزه ، وفق مواصفات محددة ، ومدروسة قبل الشروع في البناء النهضوي الذي ننشده

(يتبع.... "٦" ...بطاقة تعارف)

• حبيب عيسى

